جذور نحو النص في التراث النحّويّ
الكتابا نموذجا

د. ناصر إبراهيم صالح النعيمي
جامعة العلوم الإسلامية العالمية
كلية اللغة العربية وآدابها
قسم الدراسات اللغوية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

تحاول هذه الدراسة أن تخرج بالنحو من الدائرة الضيقة التي دفع إليها دفعاً، وذلك بأن تصله بالحياة الحديثة، ومناهج الدرس اللغوي المعاصر ؛ لكي يبني لنفسه منهجاً متكاملاً للتعامل مع النص.

وتسعى الدراسة إلى وضع لبنة في هذا الإطار، يربط كتاب سيبويه بالدرس اللغوي النحّويّ الحديث. وفي رأيي أن كل تجديد يتجاوز القديم هو تجديد ناقص مبتور، إذ ما يزال لنحونا العربي دوره الأساسي في فهم العربية نطقاً وكتابة ودلالة. ونحو النص ما هو إلا محاولة لتجديد ذلك النحو فيما يؤهله للتعامل مع اللغة أكثر شمولاً، وأنّ كتاب سيبويه – وهو يمثل قمة الهرم لقواعد العربية – قد أشار إلى معالم نحو النص بالمفهوم.

مفهوم النص لغة واصطلاحا.

عند الرجوع إلى المعاجم العربية للتعرف على معنى النص فإننا نقف أمام مجموعة من التعريفات تدور حول: الإظهار، والرفع، كما في اللسان العربيّ. النص: رفعك الشيء، ونصّ الحديث ينصّه نصاً، وكل ما أظهر فقد نص. قال عمرو بن دينار ما رأيت رجلاً أنص للحديث من الزهري. أي: أرفع له وأسند. ويقال: نص الحديث إلى فلان. أي: رفعه. [1]وقال

الأزهري[٢]: النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاه. وقال الفيروز أبادي[٣]: نص المتاع: جعل بعضه فوق بعض. أمّا الأصل اللاتيني لكلمة "نص" فهي: (Text us) بمعنى نسج، واشتق منها كلمة Text [٤].

من خلال ما سبق يتبين لنا ثمة تقارب لطيف بين المفهومين: الغربي والعربي؛ وذلك أنّ النسج فيه بذل وجهد يكتمل ويبلغ أقصاه إلى أن يكون بساطاً ؛ نتيجة لتفاعل عمليات يتم بمقتضاها ضم الخيوط إلى بعضها حتى يظهر ذلك، ويرتفع بعد أن كان خيوطاً غير ظاهرة المعالم[٥]. وعليه، فلا يعدّ النص نّصّا إلاّ إذا كان نسيجا لغويا محكما، ظاهر الدلالة.

أمّا مفهوم النصّ اصطلاحا فليس من اليسير الوقوف على تعريف جامع مانع لمفهوم النص ؛ نظراً لتعدد معايير هذا التعريف ومضامينه وخلفياته المعرفية. غير أن أغلب اللسانين يصرون على أن وحدة النص وتماسكه هو الأساس وهو القاسم المشترك لكل التعريفات، والتي تراهن على أن النص وحده متكاملة تشدها خاصية الترابط، حيث يقوم النظام الكلي للنص على مبدأ التماسك المتمثل في الخاصية الدلالية الجامعة للنص[٦]. فهذا الدكتور عبد الملك مرتاض يرى أن النص: شبكة من المعطيات اللسانية والبنيوية والايديولوجية تتضافر فيما بينها لتكون نصاً[٧].ويرى برينكر في تحديد النص إلى أنه: تتابع مترابط من الجمل ومتماسك لا تحتضنها أية وحدة لغوية أكبر منها[٨]. ويعرفه سعيد البحيري بأنّه: " القول اللغوي، المكتفي بذاته، والمكتمل بدلالته"[٩].

والمتأمل في هذه التعريفات السابقة يجدها تتفق في المضمون بالمعنى العام، فتركز على وجوب إيجاد الالتحام الشكلي النّحويّ الأفقي والرأسي بين أجزاء النص، بالإضافة إلى تحقيق الانسجام المضموني بين أجزائه ، فبمجموع هذين الجانبين يتشكل النصّ ويتحقق، وإلاّ فلا.

نشأة نحو النص.

منذ أن ظهرت الدراسات اللسانية الحديثة وهي تطرح اشكالية العلاقة بين المشار والمشار إليه، أو بين (الدال والمدلول) في علاقات اعتباطية لم تكتف بالإشارة إلى العلاقة بين الأسماء والمسميات، وإنما تحاول إشراك الوعي الإبداعي في إثراء هذه العلاقات اللسانية منذ

بزوغ فجرها على يد سوسير وهي تحاول الغوص في تحليل مكونات اللغة وتقديم نموذج للتحليل النصي وعناصره المترابطة[١٠].

ونحو النص نشأ كاتجاه جديد في التحليل اللغوي نتيجة لتفاعل مجموعة من العلوم المتنوعة: اللغة، الاجتماع، الثقافة، واتجاهات الفن....،بالإضافة إلى البحوث اللسانية المكثفة التي قامت بها المدارس اللسانية الأوروبية والأمريكية لفترة طويلة تعد المحرك الأكبر لبروز ارهاصات نحو النص. يقول الدكتور سعد مصلوح "ولدت آجرومية النص من رحم البنيوية الوصفية القائمة على آجرومية الجملة في أمريكا، وكان مقال "هاريس" عن "تحليل الخطاب"، من معالم الطريق في هذا الاتجاه، ثم شهدت اللسانيات منذ منتصف الستينيات في أوروبا توجهاً قوياً نحو الاعتراف بآجرومية النص بديلاً موثوقاً لأجرومية الجملة، وفتحت للدرس اللساني منافذ، كان لها أبعد الأثر في دراسة اللغة ووظائفها النفسانية والاجتماعية والفنية والإعلامية[١١].

ومن الجدير بالذكر أنّه لا يمكن الفصل بين نحو الجملة ونحو النصّ البتة ؛ فالعلاقة بينهما علاقة تعاضد وتكامل، بل لا معنى لنحو النص دون نحو الجملة، فمنزلة نحو الجملة من نحو النصّ كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب نحو الجملة ذهب نحو النصّ، شأنه في ذلك شأن علم الرياضيات فقيام نحو الجملة من نحو النصّ مقام الرمز من المعادلة، فإذا تحاشيت الرمز ارتكس العلم ذاته. لذلك لا يستطيع أحد أن يتجاهل مكانة وأهمية نحو الجملة في دراسة نحو النصّ بتاتا.

أهمية نحو النص.

أدرك اللسانيون أهمية الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص وذلك لأمور تتمثل في[١٢]:

١. أن الجملة ليست قادرة على وصف اللغة كعلم له ارتباط وثيق بالعلوم الإنسانية الأخرى كالفلسفة، وعلم الاجتماع، والمناحي الثقافية الخاصة بالشعوب.

٢. أهمل نحو الجملة السياق الاجتماعي رغم أهميته الكبرى في الدرس اللغوي. فاللغة عبارة عن وسيلة اتصال بين أفراد المجتمع للتوصل إلى غايات مقصودة [١٣]، كما أن السياق

من أهم عوامل الاتصال وأداء المعنى[١٤] ؛ فالمستوى التداولي من أهم متطلبات علم نحو النص بالإضافة إلى المستوى النحوي والمستوى الدّلالي.

٣. نحو النص قادر على معالجة العلاقات النحوية فيما وراء الجملة، وعلى وصف الخواص الأسلوبية إلى تحقيق الاستمرارية البنيوية للنص[١٥].

٤. نحو النص يعمل بهذا المفهوم على تجاوز الدلالة الموجودة في المفردات ليصل إلى الترميز الملفوظي داخل التراكيب[١٦].

معايير النص عند اللسانين.

حدد اللسانيون معايير للنص باعتباره وحدة لغوية لا تحتضنها أي وحدة لغوية أكبر منها، وهذا المعايير هي:

١. السبك: وهو الترابط الوصفي القائم على النحو في البنية السطحية، والتشكيل النّحوي للجمل.وهو ما يطلق عليه بالمقاربة النحوية التي تعنى بإعطاء القواعد للتعبيرات المكونة للنصّ.

٢. الحبك: وهي الطريقة التي يتم فيها ربط الأفكار داخل النص بحيث يتحقق الانسجام والمقاربة الدلالية في موضوع الخطاب، والبنية الكلية، والمعرفة الخلفية بمختلف المفاهيم.

٣. القصد: وهو التعبير عن الهدف المراد من وراء النص.

٤. المقامية: ويقصد بها السياق الثقافي والاجتماعي للنص، و بيان مدى تحكم المقام في دلالات النص.

٥. التناص: وهو أهم عنصر من العناصر المحققة للنص، وهو أن تشكل النصوص السابقة خبرة للنصوص اللاحقة، وتبيّن العلاقة بين نصّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به.

٦. الإخبارية: حيث يحمل كل نص قدراً معلوماً من القدرات الإخبارية، أو الإعلامية التي تحدد جِدة النص، وبيان مدى توقع المعلومات الواردة فيه، أو عدم توقعها.

٧. الاستحسان: ويتحقق من خلال مستوى العلاقة بين النص والمتلقي، من خلال إظهار موقفه، و قبوله للنص إزاء كون النصّ صورة من صور اللغة الذي ينبغي أن يكون مفهوماً[١٧].

الترابط النصي:

إن ما يجعل السياق سياقاً مترابطاً إنما هي ظواهر في طريقة تركيبه ورصفه، لولاها لكانت الكلمات والجمل المتجاورة غير آخذ بعضها بعجز بعض في علاقات متبادلة تجعل كلا منهما واضحة الوظيفة في السياق[١٨]. انظر مثلاُ: (ضرب محمد علياً) لترى عدداً من العلاقات المتشابكة: فمحمد: فاعل لضرب، وعلي: مفعول به، وقد جاء ضرب في صيغة المفرد الغائب ؛ ليتماسك مع محمد الذي يطلبه بهذه الصورة [١٩]. والتعليق السياقي يقتضي مطابقة بين أجزاء معينة في السياق في بعض النواحي الآتية سواء على مستوى نحو الجملة أو على مستوى نحو النصّ، وهي: [٢٠]:

١. التكلم والحضور والغيبة (الشخص).

٢. الإفراد والتثنية والجمع (العدد).

٣. التذكير والتأنيث (النوع).

ويقوم الترقيم في الكتابة بتبين القطع المتماسكة في السياق. فتنفصل الشولة بين القطعتين المستقلتين في الجملة الواحدة، وتفصل النقطة بين الجملتين التي لا تعتمد كل منهما على الأخرى، أو الإشارة إلى انتهاء مضمون الجملة أو الفكرة. إلى غير ذلك من مهام علامات الترقيم المعروفة. [٢١]

نخلص من ذلك إلى أن ما يجعل السياق مترابطاً إنما هو ظواهر فيه تفرق بينه وبين نسق الكلمات والجمل التي ليس لها رابط إلاّ مجرد المجاورة نحو: (محمد في بل قم على قبائل راكب. أو نحو: نام سمير، الكتاب مفيد.) فهذه كلمات وجمل متراصة ينقصها التماسك والتوافق ولو توفرت لها لأصبحت سياقاً عربياً لا غبار عليه[٢٢]. فالترابط النصي – في اعتقادي – هو

مجموعة من المترابطات الأساسية المعتمدة في النصّ التي لا غنى عنها البتة والمتمثلة في : المترابط النحوي، والمترابط الدّلالي، والمترابط التداولي، وإلاّ فلا.

علم نحو النص.

علم نحو النص هو الذي يعالج الظواهر اللغوية في إطار النص بوصفه وحدة كبرى، ولا يقف عند حدود الجملة فحسب؛ إذ يتم دراسة علاقات الربط بين الجمل المتعددة في إطار النص الذي يحويها[٢٣]. فعلم نحو النص يهتم بدراسة ظواهر تركيبية نصية منها: علاقات التماسك النحوي النصي، وأبنية التطابق، والتقابل، والتراكيب المحورية، والتراكيب المجزأة، وحالات الحذف، والتحويل إلى الضمير وغيرها[٢٤]. فعلم اللغة النصي، أو علم نحو النصّ – كما عرّفه صبحي الفقي– هو:" ذلك الفرع من فروع علم اللغة، الذّي يدرس النصّ باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها: الترابط، أو التماسك ووسائله وأنواعه، والإحالة والمرجعيّة وأنواعها، والسياق النصّي، ودور المشاركين في النصّ (المرسل والمستقبل). وهذه الدراسة تتضمن النصّ المنطوق والمكتوب على حدّ سواء" [٢٥].

الإشارات النّصية عند سيبويه:

يتلمس الدارس لكتاب سيبويه ومضات وإشارات نصية تلوح بين الحين والآخر؛ إلا أن هذه الإشارات لا تقوى على تشكيل منظومة متكاملة لنحو النص كما هو في اللسانيات الحديثة؛ وهذا لا يقلل من شأنها أبداً بل هي دليل قاطع على أن فكرة النص كانت مختمرة في أذهان العلماء رغم أن جهودهم قد انصبت على نحو الجملة. وتمثلت هذه الإشارات النّصيّة في المظاهر اللغوية الآتية:

أولا: الحذف.

يعد الحذف من طرائق التفسير للنص، فضلاً عن أنه من أدوات ربط النص غير المذكورة، إذ يعمل على تحقيق التماسك النصي والانسجام الذهني من خلال إعمال فكر المتلقي في السياق اللغوي، وربط بعضه ببعض، و تحقيق المقاربة النحوية والمقاربة الدلالية. واتفق النحاة والبلاغيون على أنه لا حذف في الكلام إلا بدليل يدل عليه، وهذا الدليل يتحقق عندهم

بمساعدة القرائن المقالية، أو سياقات التراكيب، أو بمعونة القرائن، ويقصد بها مقام المتكلم، أو حالة المتلقي[٢٦]. ووصف عبد القاهر الجرجاني الحذف بأنه دقيق المسلك، لطيف المأخذ،عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر.... [٢٧]. وقد أشار سيبويه إلى هذا المظهر فيما ذكره في (باب يحذف منه الفعل لكثرته في الكلام حتى صار بمنزلة المثل) [٢٨]. وذلك قولك: "هذا ولا زعامتك... أي لا أتوهم زعامتك". ومن ذلك قول الشاعر:

ديار ميّةَ إذ ميّ مساعفة ولا يرى مثلها عُجْمٌ ولا عَرَب

كأنه قال: أذكر ديار ميّة، ولكنه لا أذكر لكثرة ذلك في كلامهم، واستعمالهم إياه، ولما كان فيه من ذكر الديار قبل ذلك، ولم يذكر: ولا أتوهم زعماتك لكثرة استعمالهم إياه ولاستدلاله مما يرى من حاله أنه ينهاه عن زعمه. ومن ذلك قول العرب: "وكليهما وتمراً". فذا مثل قد كثر في كلامهم واستعمل، وترك ذكر الفعل لما كان قبل ذلك من الكلام، كأنه قال: أعطني كليهما وتمراً. ومما ينتصب في هذا الباب على إضمار الفعل المتروك إظهاره: "انتهوا خيراً لكم"سورة النساء(١٧١) وإنما نصبت خيراً لك، لأنك حين قلت: "انته" فإنك تريد أن تخرجه من أمر وتدخله في آخر. وقال الخليل: كأنك تحمله على ذلك المعنى، كأنك قلت: انته وادخل فيما هو خير لك، فنصبته لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: انته، أنك تحمله على أمر آخر، فلذلك انتصب وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر حين قال له: انته، فصار بدلاً من قوله: أئت خيراً لك وأدخل فيما هو خيرٌ لك. [٢٩]

يتضح مما سبق أن سيبويه يربط بين سياقات الحذف، وحالة المتلقي، ومقام الكلام، وذلك لإيجاد التواصل الانسجامي بين مكونات التراكيب، وآلية ارتباطها ببعض، من خلال توظيف السياق الحالي، حتى جرت هذه التراكيب مجرى الأمثال لكثرة استخدامها في البيئة اللغوية الواحدة. فكان الحذف أبرز سمة لهذه الأمثال. قال سيبويه: " وما حذف في الكلام لكثرة استعمالهم كثير، ومن ذلك: هل من طعام؟ أي: هل من طعام في زمان أو مكان"[٣٠] وتأكيداً لهذا المعنى ما ذكره أيضاً في (باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي) [٣١]، وذلك قولك، إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج، قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكة ورب الكعبة، حيث ركِنت أنه يريد مكة، كأنك قلت: يريد مكة والله. ومن ذلك قوله عز

وجل: "بل ملة إبراهيم حنيفا"(سورة البقرة، الآية: ١٣٥) أي بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، كأنه قيل لهم: اتبعوا، حين قيل لهم: "كونوا هوداً أو نصارى".ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد، فكبّروا لقلت: الهلال ورب الكعبة، أي أبصروا الهلال"[٣٢].

يظهر جلياً أن سيبويه قد تخطى حدود الجملة، التي يهتم بها نحو الجملة إلى علاقات الجمل والسياق، ويبدو ذلك من تعليقه على الآية الكريمة، حيث ربط بين سياق إضمار الفعل (نتبع) ونصب (ملّة) وما يسبق من معنى الآية نفسها فهو يوظف السياق اللغوي، إضافة إلى سياق الحال في تفسير سياقات الحذف. وتحدث سيبويه عن إضمار الفعل كذلك في (باب ما يكون فيه الاسم مبنياً على الفعل قُدّم أو أُخّر، وما يكون فيه الفعل مبنياً على الاسم).[٣٣] "وإن شئت قلت: زيداً ضربته، وإنما نصبته على إضمار فعل هذا تفسيره، كأنك قلت: ضربتُ زيداً ضربته، إلا أنهم لا يظهرون هذا الفعل هنا للاستغناء بتفسيره فالاسم ها هنا مبني على هذا المضمر" [٣٤]، إنّ علّة إضمار الفعل وانتصاب الاسم عليه ههنا هي الاستغناء بالفعل المفسر بعد الاسم، أي السياق اللغوي لأن المتكلم طالما يميل إلى الاستغناء عن بعض كلامه، إن كان فيه ما يدل عليه أو يفسره، وإلا ألجأه الاظهار إلى التكرار الممل الذي لا فائدة فيه،يقول سيبويه:" واعلم أنّهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوّضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا"[٣٥]، وهذا ما أكده ابن مضاء الأندلسي بقوله: "إن المحذوفات في كتاب الله تعالى لعلم المخاطبين بها كثيرة جداً، وهي إذا أظهرت تم بها الكلام، وحذفها أوجز وأبلغ". [٣٦].

ثانيا: الحال المؤكد للجملة.

الحال في عرف النحاة اسم فضله يبين هيئة صاحبه عند حدوث الفعل، ولكن مع ذلك قد يخرج لما يرى من حال المخاطب. وسياق الحال، بهدف التوضيح والتوكيد ولفت الانتباه بعد الإشارة والضمائر. يقول سيبويه في (باب ما ينتصب لأنه خبر للمعروف المبني على ما هو قبله من الأسماء المبهمة) [٣٧]: "فأما المبني على الأسماء والمبهمة فقولك: هذا عبد الله منطلقاً، وهؤلاء قومك منطلقين، وذاك عبد الله ذاهباً. فهذا اسم مبتدأ ليبنى عليه ما بعده وهو عبد الله. ولم يكن ليكون هذا كلاماً حتى يبني عليه أو يبى على ما قبله... والمعنى أنك تريد أن له منطلقاً، لا تريد

أن تعرفه عبد الله. لأنك ظننت تنبه أنه يجهله فكأنك قلت: انظر إليه منطلقاً، فمنطلق حال قد صار فيها عبد الله، وحال بين منطلق وهذا. ومنه ما يأتي بعد الضمائر، وذلك قولك: (هو زيد معروفاً). فصار المعروف حالاً، وذلك أنك ذكرت للمخاطب إنساناً كان يجهله، أو ظننت أنه يجهله، فكأنك قلت: أثبته أو الزمه معروفاً،... ولا يجوز أن تذكر في هذا الموضع إلا ما أشبه المعروف ؛ لأنه يعّرف ويؤكد، فلو ذكر هنا الانطلاق كان غير جائز، لأن الانطلاق لا يوضح أنه زيد، ولا يؤكده، ومعنى قوله (معروفاً): لا شك" (٣٨)

يتضح مما سبق أنّ سيبويه يضع في حسبانه طبيعة المقام الحالي، وظروف المخاطب وأحواله؛ وذلك في معالجة التراكيب النصية. فهذه التراكيب استثنائية توجب التفكير فيها؛ لأنها لم تأت على ما تعارف عليه النحاة من تباين هيئة صاحب الحال عند حدوث الفعل، فلا فعل حاصل، إنما يريد أن ينقلنا إلى ذلك السياق الحالي، وأحوال المخاطب وقد غفل عما يجري، فجيئ بعنصر الحال كتنبيه وتوضيح لمضمون الجملة قبله.

ومن الواضح أن سيبويه يبين كيفية ارتباط أحد عناصر الجملة بالسياق الحالي، وخلفية المخاطب، وبالتالي إخراج الكلام من إطار نحو الجملة إلى أوسع وهو نحو النص؛ لارتباطها بالسياق، فالنص يمكن أن يكون جملة أو ما فوقها إذا اقترنت بمقام ما.

ثالثا: أسلوب الندّبة.

تقتضي سنن العرب أن يتفجع الفرد على شيء معلوم، لذلك لا يتسنى أن يتفجع على شيء مجهول، يقول سيبويه في (باب ما لا يجوز أن يندب) (٣٩): "وذلك قولك: وارجلاه. ويا رجلاه. وزعم الخليل – رحمه الله –، ويونس أنه قبيح، وأنه لا يقال. وقال الخليل: إنما قبح لأنك أبهمت، لأنك إذا ندبت فإنما ينبغي لك أن تنفجع بأعرف الأسماء، وأن تخص ولا تبهم، لأن الندبة على البيان. وزعم أنه لا يستقبح: (وامن حفر بئر زمزماه) ؛ لأن هذا معروف بعينه، وكأن التبيين في الندبة عذر للتفجع، فعلى هذا جرت الندبة في كلام العرب".(٤٠)

يتبين لنا أن سيبويه ينظر إلى الكلام على أنه شكل من أشكال السلوك الاجتماعي، وطريقة العرب في كلامهم، فيجوز الندبة من المبهم من باب العرف الاجتماعي، وكثرة استخدامه وانتشاره بين المستخدمين، بدليل قوله: "هذا معروف بعينه، وعلى هذا جرت العرب"

فهذه إشارة واضحة على إبراز دور المقام الاجتماعي في قبول التركيب. فالتفسيرات الاجتماعية أو المقام الاجتماعي، هو الذي أجاز الندبة من المبهم لعلمه ومعرفته الضمنية. وهذا من متطلبات الدراسة النصيّة التي تعنى بالوقوف على معنى النص اللغوي من خلال تحليله ضمن السياق الثقافي أو الاجتماعي الذي ولد فيه لفهم معناه وإجازته واستحسانه وقبوله.

رابعا: التابع.

يأتي دور التابع في التماسك النصي، وتحقيق الانسجام من خلال اتباعه لمتبوعه في بعض الأمور، إلى حد أن بعض التوابع عُدت كالكلمة الواحدة مع متبوعها، كمنزلة الصفة من الموصوف، والتأكيد من المؤكد، فلا يدخلها عطف أو ربط ؛ لشدة الامتزاج بينهما حتى يصبحا كالاسم الواحد على حد تعبير سيبويه، فيقول تحت (باب مجرى النعت على المنعوت والشريك على الشريك والبدل على المبدل منه وما اشبه ذلك) [٤١]. ومن النعت: مررت برجل لا قائم ولا قاعد، جُرّ لأنه نعت، كأنك قلت: مررت برجل قائمٍ، وكأنك تُحدّث من في قلبه أن ذاك الرجل قائمٌ أو قاعدٌ، فقلت: لا قائم ولا قاعد؛ لتخرج ذلك من قلبه... ومنه: مررت برجل راكعٍ لا ساجدٍ ؛ لإخراج الشك، أو لتأكيد العلم، ومنه مررت برجلٍ راكعٍ بل ساجدٍ[٤٢]

جليّ أن سيبويه يفسر هذه التراكيب بظروف السياق الحالي، وكما يرى من حال المخاطب. فالعطف في التركيب يؤدي إلى أحد شيئين: إخراج الشك، أو تأكيد العلم. وإخراج الشك يعني أن المخاطب بهذا يشكّ في هيئة الرجل حين المرور به بين كونه قائماً أو قاعداً، فيأتي المتكلم فيزيل الشك من قلبه. وأما تأكيد العلم فيتضح من أن المخاطب ينكر هذا الوضع الذي يؤكده المتكلم فيذكر له المتكلم عبارته ويؤكد له الخبر أو الهيئة. أضف إلى ذلك، أن سياق الحال وما يرى من حال المخاطب يساعدنا على تصور جملة خفية يستحضرها القارئ حال سماع النص، وقد ثبت جزء منها وهو المرور، الأمر الذي يدفعنا إلى تصور، أو تقدير سؤال محذوف، بدليل وجود حرف العطف واللام، فربطا بين الجملتين الناشئتين من الحوار بين المتكلم والمخاطب، إيذاناً بأن المتكلم لم يرد قطع الجملة الثانية من الأولى. ومما يؤكد هذا المعنى ما ذكره سيبويه في (باب اسم الفاعل الذي جرى مجرى الفعل المضارع...) [٤٣]. ولو قلت: هذا ضارب

عبد الله وزيداً، جاز على إضمار الفعل، أي وضرب زيداً. وإنما جاز هذا الإضمار لأن معنى الحديث في قولك: هذا ضارب زيد: هذا ضرب زيداً، وإن كان لا يعمل عمله، فحمل على المعنى، كما قال جلّ ثناؤه: "ولحم طير مما يشتهون * وحور عين"(سورة الواقعة، الآية: ٢١،٢٢)، لما كان المعنى في الحديث على قوله: لهم فيها، حمله على شيء لا ينقض الأول في المعنى" (٤٤). فسيبويه قد تخطى حدود الجملة إلى الحديث عن ترابط جملتين، وذلك بفعل أداة الربط (الواو)، التي اشركت بينهما، وهذا ما أجاز لنا إضمار الفعل في الجملة الثانية، اعتماداً على السياق اللغوي المتمثل في: الجملة الأولى، وما تبقى من الجملة الثانية، والرابط اللفظي، إيذاناً بوصل الجملتين وترابطهما، وانسجامهما، وتحقيق الترابط والاتساق النحويّ الذي يغذي بالضرورة الترابط الدلالي.

خامسا: التعليق الشرطي.

الشرط من أساليب العربية، وفيه يتعالق الجزاء بالفعل إما بالشرط، أو بالأداة، أو بالجزم؛ كنوع من التماسك والترابط بين الطرفين، من ذلك ما جاء في (باب الجزاء) (٤٥). قال سيبويه: "واعلم أنه لا يكون جواب الجزاء إلا بفعل أو بإلغاء فأما الجواب بالفعل فنحو قولك: إن تأتني أقل.... وإنما أنجزم هذا الجواب، لأنهم جعلوه معلقاً بالأول غير مستغن عنه إذا أرادوا الجزاء، كما أنّ (إنْ) تأتي غير مستغنية عن آتك "(٤٦). وأضاف سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله عزّ وجلّ:" وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون" (سورة الروم،الآية: ٣٦) فقال: هذا كلام معلق بالكلام الأول" (٤٧). وأما الجواب بالفاء فقولك: إن تأتني فأنا صاحبك. ولا يكون الجواب في هذا الموضع بـ(الواو) ولا بـ(ثم). ألا ترى أن الرجل يقول: افعل كذا وكذا، فتقول: فإذن يكون كذا وكذا... ولو ادخلت الواو وثم في هذا الموضع تريد الجواب لم يجز"(٤٨). واضح هنا أن الحديث عن تعالق جملتي أسلوب الشرط، من حيث الشكل والدلالة: ففي الجانب الشكلي تمثل التعالق بالجزم للطرفين،وهذا ما يمثله في نحو النص بالسبك – أحد أهم معايير ومبادئ نحو النص –، أو الاتساق والترابط النحوي، أمّ في الجانب الدلالي تمثل التعالق في أن الثاني يترتب على الأول، يوجود بوجوده، وينعدم بانعدامه كعلاقة السبب

بالمسبب، فكل منهما غير مستغن عن الآخر، وفي هذا تحقيق لأحد معايير نحو النص وهو الحبك والانسجام الفكري للنصّ.

وبعد، ليس من اليسير على أي باحث أن يقف على كافة الإشارات النصية في كتاب بحجم كتاب سيبويه، وليس هذا هو هدف هذه الدراسة، بل إن الدراسة جاءت لتبرهن وتؤكد على أن التراث النحويّ العربيّ يحمل في طياته بذور نحو النص كفكرة ومفهوم، وإن كتاب سيبويه – وهو يمثل قمة الهرم لقواعد العربية – قد أشار إلى معالم نحو النص كما مر معنا في الأبواب المنتقاة للدراسة، وهذا أمر يحفزنا إلى إجراء مزيد من الدراسات الهادفة والمعمقة لإماطة اللثام عن نظرية نصية في التراث اللغوي عند العرب ؛ لأنّ التفكير النحويّ العربيّ – في اعتقادي – قادر على استيعاب معطيات ومتطلبات نحو النص ومبادئه كما هي في الدرس اللساني الحديث.

هوامش البحث:

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (ن ص ص).

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، مادة (ن ص ص).

(٣) القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مادة (ن ص ص).

(٤) انظر: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، عبد القادر شرشار، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٦، دمشق، ص ٤

(٥) انظر: سعيد يقطين، انفتاح النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٩، ص٢١.

(٦) مقاربة نحو النص في تحليل الخطاب، ياسين سرايعية، جامعة بن خلدون، مجلة العلوم الإنسانية، سنة٥، عدد ٣٥، ٢٠٠٧م، ص٣، مقال.

(٧) نقلاً: عن تحليل الخطاب الأدبي، عبد القادر شرشار، ص٤٦، مصدر سابق.

(٨) المصدر السابق، ص ٤٧.

(٩) علم لغة النص، سعيد البحيري، ص ١٠٤.

(١٠) انظر: نظرات في مصطلحات اللسانيات النصية، أسامه عبد العزيز جاب الله، مقال، منشورات كلية الآداب، جامعة كفر الشيخ، ص١

(١١) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، سعد مصلوح، دار الكتب، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٢٢٥.

(١٢) انظر: نظرات في مصطلحات اللسانيات النصية، أسامه عبد العزيز جاب الله، ص ١–٣، مصدر سابق.

(١٣) الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، يحيى الأحمد، عالم الفكر، الكويت، ١٩٨٩، ص ٧١.

(١٤) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٥٠.

(١٥) نظرات في مصطلحات اللسانيات النصية، أسامه عبد العزيز جاب الله، ص ٣، مصدر سابق.

(١٦) المصدر السابق، ص٣، ولسانيات النص، خيرة حمزة العين، مجلة علامات في النقد، جده، عدد ٣٨، ٢٠٠٠م، ص ٣٤٩.

(١٧) انظر مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ١٩٨٦م، ص ٢٣٧، دار الثقافة، الدار البيضاء. * انظر أيضاً: مقاربة نحو النص في تحليل النصوص، ياسين سرايعية، ص٤، مصدر سابق، وانظر: النص والخطاب والإجراء، روبرت ديبو جراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٠٣.

(١٨) مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص ٢٣٧.

(١٩) المصدر السابق، ص ٢٣٨

(٢٠) مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ١٩٨٦، ص ٢٣٨، دار الثقافة، الدار البيضاء.

(٢١) المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٢٢) المصدر السابق، ص ٢٤١

(٢٣) تحديد المفاهيم، إبراهيم الكريم، مجلة العلوم الاجتماعية، سنة ٦، عدد١٣، ص ٦١.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٢٥) علم اللغة النصي، صبحي الفقي، ص ٣٦.

(٢٦) التعبير القرآني والدلالة النفسية، عبد الله الجيوسي، دار الغوثاني، ٢٠٠٦، ص ٣١٣.

(٢٧) دلائل الإعجاز، الجرجاني، دار الكتاب العربي، ١٩٩٥، ص ١٢١.

(٢٨) الكتاب، سيبويه، ج١، ص ٢٨٠.

(٢٩) المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٢.

(٣٠) المصدر السابق، ج١، ص ١٣٠.

(٣١) المصدر السابق، ج١، ص ٢٥٧.

(٣٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٥٧.

(٣٣) المصدر السابق، ج١، ص ٨٠.

(٣٤) المصدر السابق، ج١، ص ٨١.

(٣٥) المصدر السابق، ج١، ص٢٤.

(٣٦) انظر: دروس في المذاهب النحوية، عبده الراجحي، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٣٠.

(٣٧) الخصائص، ابن جني، ٢٠٠١، دار الكتب العلمية، ج٤، ١٠٣، والحذف في الأساليب العربية، إبراهيم رفيدة، رسالة ماجستير، ١٩٧١، جامعة الأزهر، ص٤.

(٣٨) الكتاب، سيبويه، ج٢، ص ٧٨.

(٣٩) انظر: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٧

(٤٠) انظر: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٧.

(٤١) انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٢٧–٢٢٨.

(٤٢) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص ٤٢١.

(٤٣ انظر: المصدر نفسه، ج١، ص ٤٢٩–٤٣٠.

(٤٤) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٤.

(٤٥) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص ١٧١–١٧٢.

(٤٦) انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٦.

(٤٧) انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص ٦٣–٦٤.

(٤٨) انظر: المصدر نفسه، ج٣، ص ٦٣.

قائمة المصادر المراجع

المطبوعات:

١. الأحمد، يحيى، ١٩٨٩م.الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، عالم الفكر، الكويت.
٢. الأزهري،أبو المنصور.٢٠٠٤م، تهذيب اللغة. ط١. دار الكتب العلمية.
٣. أنيس، إبراهيم. ١٩٧٦م. دلائل الألفاظ. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٤. بحيري، سعيد حسن.١٩٩٧م، علم لغة النص(المفاهيم والاتجاهات)، ط١، مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان،الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، القاهرة – مصر.
٥. جاد الله، أسامه عبد العزيز. ٢٠٠١م.نظرات في مصطلحات اللسانيات النصية. منشورات كلية الآداب، جامعة كفر الشيخ.
٦. الجرجاني، عبد القاهر. ١٩٩٥م. دلائل الإعجاز. دار الكتاب العربي.
٧. ابن جني، أبو الفتح عثمان.٢٠٠١م. الخصائص. تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية.
٨. الجيوسي،عبد الله. ٢٠٠٦م. التعبير القرآني والدلالة النفسية، ط١. دار الغوثاني، دمشق.
٩. حسان، تمام. ١٩٨٦م. مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء، دار الثقافة.
١٠. ديبو جراند، روبرت. ١٩٩٨م.النص والخطاب والإجراء. ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة.
١١. الراجحي، عبده. ١٩٨٠م. دروس في المذاهب النحوي، دار النهضة، بيروت.
١٢. سيبويه، عمرو بن عثمان. ١٩٨٣م، الكتاب، ط٣.تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.
١٣. شرشار، عبد القادر. ٢٠٠٦م، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص،، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

١٤. الفقي، صبحي. ٢٠٠٠م. علم اللغة النصي. بين النظرية والتطبيق، (دراسة تطبيقية على السور المكيّة)، ط ١، دار قباء للنشر– القاهرة،
١٥. الفيروز أبادي، مجد الدين، ١٩٩٥م. القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت.
١٦. مصلوح، سعد. ٢٠٠٦م. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ط١. دار الكتب.
١٧. ابن منظور، محمد بن مكرم. ١٩٩٠م. لسان العرب، ط١. دار صادر، بيروت،
١٨. يقطين، سعيد،١٩٨٩م. انفتاح النص، المركز الثقافي العربي، بيروت.

المجلات:

١٩. رفيدة، إبراهيم.١٩٧١م. الحذف في الأساليب العربية. رسالة ماجستير، جامعة الأزهر.
٢٠. سرايعية، ياسين. ٢٠٠٧م. مقاربة نحو النص في تحليل الخطاب مجلة العلوم الإنسانية، جامعة ابن خلدون، سنة٥، عدد ٣٥.
٢١. العين، خيرة حمزة ٢٠٠٠م. لسانيات النص مجلة علامات في النقد، جدة، عدد ٣٨.
٢٢. الكريم، إبراهيم. تحديد المفاهيم، مجلة العلوم الاجتماعية، س٦، عدد ١٣.